

سُمراء

د / منى محمود - مصر

فُتِحَ الباب قليلاً لتمتد منه يدٌ خشنة ظافرة، تحمل منديلاً قماشياً
أبيض اللون، مُلطَّخاً بالدماء! .. فيزداد الطبل اشتعالاً، وتموج زغاريد
النسوة لتعصف بحالة الترقُّب الجاثمة على الأنفاس لدقائق مضت.
عاد ذو اليد الخشنة مُهَيَّجاً بِخُطى يتجاذبها، ليلقى بنفسه على
الفراش، مُعطيّاً ظهره لذاك الجسد المُنكَمش بجواره، وغط في سُبات عميق.
جسدٌ مُنكَمش ضئيل، لا يحمل من علامات الأبوثة سوى القليل، وجه
شاحب، عينان مُتَجَرَّتَان، مُمتلئتان بدمع مُحتبس. دمَعٌ مُقيّد .. لم يع يقيناً
إن كان بإمكانه تحطيم قُضبانه، أو حتى الانفجار خلالها، فينهمر مُتحرِّراً على
الوجنتين ..

كُنت أنا .. "سمرء"، هذا اسمي. لا أعلم سبب تسميتي هكذا رغم
بياضى الشاهق، سوى أنها كانت رغبة أبى، رحمه الله.
ظلمت ثابتة مكانى، بلا جِراك. إلى أن هدا الضجيج بالخارج شيئاً
فشيئاً ..

تناهى إلى مسامعى أخيراً صوت مزلاج الباب الخارجى للبيت وهو يُغلق
بإحكام، وانطفأ بصيص الضوء المُنبعث من أسفل باب غرفتى.
حتماً قد رحل الجميع، ودلّفت حماتى للنوم بالغرفة المُجاورة، لا
يفصلها عنى سوى هذا الجدار..

انزعجت بشدة، فهولت مُسرعة من تحت غطائي الحريري لأرتدى ثيابًا، كانت قد وضعتها لى أمى على حافة السرير. أخبرتنى أنها ثياب ليلة العرس. وجدتها مُلقاة أرضًا.

لم أكتفِ بها، فارتديت الروب فوقها. كان طويلًا جدًّا، حتى أنه أخفى كلتا قدمائى بالكامل. أحكمت الرباط ، رغم يداى المُرتعدتان، فلم يعد يظهر منى سوى رأسى والكفين.

كان خفقان قلبى ينتفض له جسدى بأكمله، بشكل متواتر لا يكاد ينقطع. حتى صوت نبضى، كان صدها فى أذنائى كقرع الطبول !

رمقت الرجل النائم بذعر.. ثم الحائط الفاصل بينى وبين حماتى بذعر أكبر .. فوجدتنى أتكوّم على الأرض بجانب السرير، أضُم ساقائى لصدرى بعنف، وكأننى أؤكد لِنفسى أنى لم أزل أملك شيئًا فى جسدى لم يُمتَهَن بعد .. فلم أتأكد مُطلقًا.

لست أدرى لماذا فى هذه اللحظة بالذات تذكرت يوم "ختانى" .. ليلة أتت أمى بامرأة غريبة لبيتنا الصغير. ودونما أى حديث، أرقدتنى أمى على الأرض. فى وضع يشبه ذلك الذى كنت عليه مُنذ قليل. جردتنى من ثيابى عُنوة، لتقترب المرأة الغريبة بثيابها السوداء .. كانت هى الأخرى لديها أصابع قاسية، خشنة، امتدت لجسدى بجرأة .. بينما أحملق انا بدهشة، مكتومة الأنفاس .. لا أعى ما يحدث، ولا ما سيحدث ..

لم تمر اللحظة .. إلا وعلا صُراخى من شدة الألم .. ومن رؤية الدماء .. بل، ومن صدمتى، أكثر من أى شئى آخر!



انتظرت من أمي تفسيراً لما فعلوه بي في الأيام التالية، ولم يحدث. لا أذكر أني قد أتيت بخطأ يستحق كل هذا العقاب! كيف فعلت بي أمي ذلك، وهي من تُشدّد علىّ دوماً منذ وعيت على الدنيا، أن عورتى خطأ أحمر.. لا يجوز كشفها، والموت أرحم من هتكها.. لا أعلم!

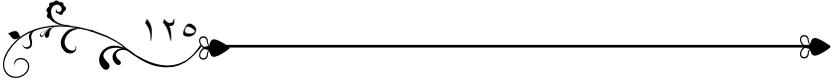
انهمر دمي أخيراً في صمت واستسلام.. انهمر مُتصارعاً مُتقارفاً، مُتسائلاً: لماذا يُفعل بي هذا؟ وبتلك الصورة الموجعة؟ الأني يتيمة؟! أولو كان أبي على قيد الحياة، كان سيكون بإمكانه حمايتي من كل هذا؟.. لا أعلم!

لماذا أصرت حمايتي على أن يتم زفافي على ابني الآن، وقد رأيتُ شيخ زاويتنا يُشدّد على أمي مراراً؛ أني لازلت أصغر عن السن القانوني بالكثير. لم أفهم حينها ما هذا السن القانوني. ولكن.. لماذا وافقت أمي؟ لماذا استسلمت لقسوة حمايتي؟ ألأنها مكسورة الجناح، بلا رجل؟ أم أنها وجدت في ذلك الفرصة لتتخلص من عبء وجودي بالبيت؟!.. لا أعلم!

كيف للأغراب أن يهتكوا سرتي، ويتقاذفون منديلاً يحمل دمي فيما بينهم، وعلى الملأ هكذا؟!.. أسمع دوماً كلمة "الشرف" ممزوجة بفعلتهم القبيحة تلك.. أويتجسد معنى الشرف في بضع قطرات دماء؟!.. لا أعلم!

وما أكثر ما لا اعلمه في هذه الحياة.. حتى القراءة والكتابة، تعلمتهما بالكاد، خلسة من جارتنا التي تذهب للمدرسة. هي لديها أب.

انتفضت من سيل أفكارى بدُعرٍ إثر تحرك الرجل القابع في الفراش، لينام مُستلقياً على ظهره.. كتمت أنفاسي بكلتا يداي، حتى تأكدت أنه لم يزل مُستغرقاً في النوم، ولن يستيقظ الآن. اطمئننت، فأنزلت يداي الأولى تلو الأخرى لأتنفس ببطء..



تسمّرت عيناى حينها على وجهه، مُسترجعة لحظات الفراش معه ..
كانت قاسية كمامحه، مؤلمة. كان ينتزع كل شئ منى انتزاعًا .. وجنتاى ..
شفتاى .. كل شئى .. كل شئى !!
شعرت بالغرّى رغم الثياب! .. فهرعت إلى الدولاب، وارتديت جلبابًا
فضفاضًا فوق ملبسى الطويلة، وعدت لأتكوم ثانيةً على الأرض ..

